

## دور الحرية في تطور الحضارة الإسلامية

د/عيسى عبد الله علي<sup>(\*)</sup>

في الجزء الأول من موسوعته الهامة "قصة الحضارة" استعرض ول ديورانت العناصر التي تعتمد عليها الحضارات في قيامها ونهضتها بشكل عام، ومع تعدد هذه العناصر وتنوعها إلا أن ديورانت لم يدرج من بينها عنصر "الحرية". ربما كان الحديث عن الحرية في هذه المراحل التاريخية، بحسب تصورنا المعاصر لها، نوع من العبث بكل تأكيد، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار القوانين الاجتماعية السائدة والتي تؤثر علي نظرة أبناء هذه الحضارات إلى مفهوم "الحرية" وبالتالي يصبح هناك نوع من التنوع والاختلاف في مدلولاته. ومن الواضح، بالفعل، أنها قد لا تمثل مكون هام في حال كانت الحضارة قائمة علي شعب واحد خاضع لسلطة دولة مركزية صارمة علي غرار الحضارات المصرية، العراقية والهندية، لكنها في المقابل تصبح مكوناً ضرورياً للغاية عندما تسيطر هذه الحضارة علي مساحات ضخمة من الأراضي، وتشمل عدد كبير من الشعوب المتنوعة من النواحي الدينية، العرقية والثقافية، وتصبح الحرية في هذه الحالة الرابط الأساسي الذي يجمع هذه الشعوب المتنوعة في بوتقة واحدة وتمكن من صهر ثقافتها وعرقياها المتنوعة وإنتاج حالة حضارية جديدة ممتزجة بكل العناصر المتقاربة داخل هذه الحضارات. لقد ذكر التاريخ عدداً قليلاً للغاية من هذه التجارب لعل أهمها الحضارة الفارسية في عهد الهخامنشيين، الحضارة اليونانية، الحضارة الرومانية والبيزنطية وأخيراً الحضارة الإسلامية.

وفي الوقت الذي فشلت فيه الحضارة الهخامنشية في إيران من بعد قورش في إيجاد نموذج مختلط مع الحضارات الأخرى نظراً لمركزيتها الواضحة واعتمادها علي العنصر الفارسي بشكل أساسي وتفضيله علي العناصر الأخرى، كما فشلت الحضارة الرومانية كذلك نظراً لعسكريتها وتعويلها علي المنجزات الفكرية والفلسفية اليونانية،

(\*) قسم الدراسات الإسلامية - كلية الشريعة - جامعة قطر.

فقد نجحت الحضارتين اليونانية والإسلامية من تحقيق هذه المعادلة نظراً لتبنيها للحرية كمكون في نهضتها، وبالتالي تمكنت الحضارة اليونانية من إنتاج الهيلينية، كما تمكنت الحضارة الإسلامية من إنتاج مكون خاص بها ساهم فيه الشعوب الواقعة تحت رعايتها حتى التي لم تدن بالإسلام.

في الحضارات الأربعة كانت الحرية (المتناسبة مع القواعد الاجتماعية المعاصرة) هي الضامن الأساسي لترابط هذا الموزايك من الشعوب والثقافات والأديان، كما كان الانقلاب عليها ومحاولة فرض سيادة أحد هذه الشعوب عبر السلطة المثلة له إيذاناً ببدء انقراض عقد الوحدة السياسية المؤلفة لها، واستدعاء كل شعب لتراثه القومي الخاص والبحث عن تطوره الذاتي بعيداً عن الآخرين.

من خلال هذا الوعي بأهمية الحرية، فقد تميزت الحضارة الإسلامية بحالة خاصة، كونها كانت قائمة علي ديانة توحيدية تمتلك نصوصاً تشريعية مقدسة، وبالتالي فلم تعتمد علي الحرية كمكون تفرضه المصلحة السياسية للدولة، وإنما اعتمدت بالأساس علي نصوص شرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية مكون الحرية رسوخاً واستمرارية أكبر في الوعي الإسلامي المؤسس لهذه الحضارة الضخمة. وهذا هو محور الدراسة وأهميتها التي تتحدث عن دور الحرية في تطور الحضارة الإسلامية، وتناقش هذه الدراسة بالتفصيل ثلاث نقاط أساسية وهي:

\* مقدمة

\* أهمية الحرية كمكون في تطور الحضارات.

\* خلفيات الحرية في التراث الإسلامي (القرآن والسنة. التنوع السكاني العرقي والعقائدي. ازدهار الطبقة التجارية).

\* صور الحرية وآثارها في الدول الإسلامية المختلفة في عصورها المختلفة (الراشدين. الأمويين. العباسيين. الفاطميين).

وأنواع الحريات الأساسية (الحرية السياسية. الحرية العقائدية "دينية ومذهبية". الحرية الاجتماعية. الحرية الاقتصادية) وتطور الحرية في المجتمع الإسلامي وكذلك الدور المحوري للإسلام في الحفاظ علي حرية الإنسان وكرامته.